

الصناعات في بلاد العرب

هي الصياغة والنجارة والحدادة والحياسة والقصاب وإصلاح البنادق والبيطرة وبعض أنواع الطبابة: كالحجامة والفصد والكي وغير ذلك.

والصناعات على اختلافها معدودة من المهن الخسيسة التي تحط بقدر صاحبها؛ ولذا فالذين يحترفون هذه الصناعات. إما من غير العرب أو من العرب الذين لا ينتمون إلى أصول مشهورة أو غير قبيل. ومما يدل على احتقار الصناعات ألفاظ السباب المعروفة عند العرب (يا ابن الصانع) إذا أرادوا تحقير إنسان وسبه بكلمة تكون مجمع السباب، وبهذه المناسبة نذكر أن الملك ابن السعود في مجمع كبير (وكان حائقاً على آل عايض حكام أبهاً السابقين لما تكرر من خيانتهم له) قال لأحدهم هذه الكلمة، فعندما انصرفوا وذهبوا إلى بيوتهم ابتدرته زوجته وقالت له : لا يمكن أن أعاشرك بعد الآن؛ لأنك من أبناء الصانع لا من أبناء القبائل وابن السعود لا يكذب، ولولا أن أفهمت فيما بعد أن ذلك كان عن بادرة غضب ما أمكن أن تقتنع بالرجوع إلى بيتها.

ولقد فتك عبد الكريم السعدون بعبد بك الصانع مدير الداخلية العراقية، لأن عبداً بك- وهو من ذرية الصانع- تجاسر على الزواج بابنة أحد أبناء السعدون الأشراف؛ ولق دعطف جلالة الملك عبدالعزيز على موقف عائلة السعدون، ولو استطاع لغير موقف القضاء في هذا الموضوع الذي هز أحسن ناحية في جلالته.

وبهذه المناسبة أيضاً عند مذكراتي في الموضوع أخبرني المرحوم السيد رجب النقيب (نقيب أشرف البصرة) أنه في إحدى سياحاته إلى بغداد أوصى أحد أصدقائه بزن يتوسط له في الزواج بابنة أحد الأشراف، فكان ذلك الصديق يذكر

له سيدة من بنات الأشراف المشهورين ببغداد كبيت باشجى وجاد رجبى وغيرهم، فكان السيد يمتنع من القبول ويقول : أريد الأشراف. وما كان صديق ليفطن لما يريده السيد، وأخيراً قال له صديقه: لقد عرضت عليك كل أشراف بغداد فمن تريد بعد ذلك؟ قال : أريد الأشراف، قال : لا يوجد أشرف من هؤلاء هنا، قال: لا، أنت ذكرت لي أسماء الصنّاع وأنا أريد أصحاب الأنساب، قال : ها! لو أخبرتني بذلك لأتيك كل يوم بأسماء عشرين بدوياً من أقدر البدو، لقد اخترت لك أهل النظافة والمدنية واللطافة والكياسة، أنا لا أتوسط في هذا الموضوع، اذهب إلى السماوة أو غيرها من البادية واختر لنفسك ما تشاء... وإن من له اتصال ببلاد العرب يقف على كثير من القصص التي يمتنع فيها فقيرات البدو عن الزواج بأغنياء الحضر احتجاجاً بالنسب، فقد رفضت إحدى البدويات التزوج بابن المشتري حاكم الزبير في أيام الأتراك لأنه من أبناء العبيد.

ولا تزال التجارة في البحرين من الحرف التي لا يصح اشتغال العربي الأصل بها، ولذا كانت الأيدي غير العربية هي القابضة على زمام التجارة في البحرين. ومن الغريب أن العربي لا يزال يفضل رعاية الإبل والغنم والخدمة وراء الحمير على البيع والشراء والصناعة أو فتح متجر للبيع والشراء.

ومن الصناعات المشهورة والتي يحترفها كثير من البدو والحضر غواصة اللؤلؤ، وغواصة اللؤلؤ لها نظام خاص في غاية الغرابة: ليس هناك أجور معينة للعمل، ولكن العمال يشاركون صاحب السفينة فيما يحصل، فالذي يغوص له سهمان، والذي يخرج الغواص - وهو ما يسمونه سيبا - له سهم، وذلك بعد ما يخرجون خمس لحاصل للسفينة وثمان المأكّل والمشرب، ولا يمكن أن يقبل أي عامل أجراً معيناً لأنه يريد أن يجرب حظه مع صاحب السفينة، إن كان قليلاً فقليل، وإن كان كثيراً فكثير. وصناعة الغوص من الصناعات الشاقة، وهي

تجري حسب الطرق القديمة ولاس تستخدم الآلات الحديثة، ولا يقل عدد من يشتغل بهذه الصناعة عن مائتي ألف عامل من العرب والإيرانيين لمدة خمسة أشهر. وموسم اللؤلؤ من أحسن المواسم وأجملها؛ وفيه تنشط الحركة التجارية، ولذا لا يمكن أن يتصور مقدار ضيق أهل هذه الصناعة في الأزمات الحالية لأن أكثرهم فقراء وليس لهم نقابات وشركات تعاونية مثل ماهو في جميع البلاد المتقدمة.

والطريقة المتبعة الآن في غواصة اللؤلؤ هي طريقة الحجر: يربط حجر كبير بطرف الحبل، فإذا أراد الغائص أن ينزل إلى الماء تمسك بالحجر ونزل إلى قاع البحر بكل سرعة، وإذا ضاق نفسه هَزَّ الحبل بيده ثم صعد بمساعدة رفيقه الآخر الموجود بأعلى السفينة والمنيقظ لكل حركة يأتيتها الغائص. ولاغوص يشبه - من جميع الوجوه - بالمرعى، فنجد في جهة مائات للسفن، بينما ترى بعض الجهات الأخرى ليس فيها سفينة واحدة؛ وصاحب السفينة ينتقل من جهة إلى جهة وراء المحار واللؤلؤ، وهنالك في البحر تجد التجار الذين يدعون «الطواويش» ينتقلون من سفينة إلى سفينة لشراء ما يستحصل من اللؤلؤ.

ولقد اكتشف البترول في السنوات الأخيرة في أكثر بقاع الجزيرة العربية فكان مصدر خير وبركة على البلاد زادت به موارد الثروة العامة ومكنت البلاد من الأخذ بنصيحتها من نواحي الإصلاح المختلفة أسست المدارس الابتدائية والثانوية وأرسل الطلبة النابهون إلى مصر وأوربا للتزود من مناهل العلم كما أسست الإدارات الصحية وشيدت الطرق وبالجملية تطورت البلاد تطوراً سريعاً لم تكن تصل إليه لولا وجود هذا المعدن الثمين.